

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى

٧

زيد

بن حارثة

نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٧

زيد بن حارثة

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر

مكتبة مصر

سعيد حمودة الشحات وشركاه
شارع كامل صدقي - الفيحة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

زيد بن حارثة

أقبلت إجازة نصف السنة ، فسارعَ عُمرُ لزيارةِ
جدِّه في مزرعته ، فهو يحبُّ أن يلعبَ في الحقولِ
الخضراءِ الواسعة ، ويشتاقُ قبلَ كُلِّ شَيْءٍ إلى رُكوبِ
الحمار ، ومُلاعبةِ الخرافِ والماعِزِ .

فاستقبله جدُّه بحفاوة ، وقالَ له : أهلاً يا عُمر ، قد
أوحشتنا كثيراً منذُ سافرتَ في آخرِ الصيفِ .

قال عُمر : أهلاً يا جدُّو ! إطمئن ، فسأقضى عندكم
أسبوعِي الإجازةِ كاملين ، فكمُ أشتاقُ لأكلِ الفطيرِ
والعسل ، ولِرُكوبِ الحمارِ الصغيرِ .. على فكرة ، أينَ
هو الآن ؟ فأنا أريدُ أن أتنزَّهَ عليه في الحقلِ .

قال جدُّه : اصبرِ يا عُمر ، فالوقتُ أمامنا مُتسع ،
تعال الآنَ نمرُ على المزرعة ، بينما تُعدُّ لك الخادِمُ

« خَضْرَةُ » الْفَطِيرِ وَالْعَسَلِ .

خَرَجَ عُمَرُ يَسِيرُ مَعَ جَدِّهِ ، وَشَاهَدَا الزَّرَاعَاتِ
الْمُخْتَلِفَةَ ، فَهَذَا قَمْحٌ ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ ، وَهَذَا قُطْنٌ نَاصِعُ
الْبَيَاضِ . وَشَاهَدَا الْفَلَاحَاتِ وَهِنَّ يَحْلِبْنَ الْأَبْقَارَ ،
وَالْأَطْفَالَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَيَمْرَحُونَ .

وَعِنْدَ غُشَّةِ الدَّوَابِّ ، اسْتَوْقَفَ عُمَرُ مَشْهُدٌ
عَجِيبٌ ، اسْتَغْرَبَ لَهُ كَثِيرًا . فَسَأَلَ جَدَّهُ : لِمَذَا
تَمْشِي هَذِهِ الْكَتَاكِيْتُ وَرَاءَ هَذِهِ الْبَطَّةِ يَا جَدِّي ؟
فَهِيَ لَيْسَتْ أُمُّهَا .

ضَحِكَ جَدُّهُ وَقَالَ : وَلَكِنَّهَا أُمُّهَا فِعْلًا يَا عُمَرُ .

اسْتَغْرَبَ عُمَرُ وَسَأَلَ جَدَّهُ : وَلَكِنْ كَيْفَ ؟

قَالَ جَدُّهُ : إِنَّ لَذَلِكَ قِصَّةً طَرِيفَةً ، فَقَدْ بَاضَتْ
الدَّجَاجَةُ وَرَفَضَتْ أَنْ تَحْضِنَ بَيْضَهَا ، فَجَاءَتِ الْبَطَّةُ

ورَقَدَتْ عَلَيْهِ . فَلَمَّا فَقَسَ الْبَيْضُ وَخَرَجَتْ مِنْهُ
الْكُتَاكِيَتِ ، أَحَبَّتِ الْكُتَاكِيَتِ الْبَطَّةَ وَتَبِعَتْهَا .
قَالَ عُمَرُ : وَهَلْ هَذَا مُمِـكِنٌ ؟ كَيْفَ تَتْرُكُ الْكُتَاكِيَتِ
أُمَّهَا ، وَتَتَعَلَّقُ بِأُخْرَى ؟

قَالَ جَدُّهُ : الصَّغَارُ يَا عُمَرُ تَشْعُرُ بِالْحُبِّ وَالْحَنَانِ ،
وَقَدْ شَعَرَتِ الْكُتَاكِيَتِ بِعَطْفِ الْبَطَّةِ وَحَنُوءِهَا عَلَيْهَا .
وَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ مِثْلَ هَذَا فَلَا تَسْتَغْرِبُ ، أَيَّامَ الرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

سَأَلَ عُمَرُ : أَحَدَثَ ذَلِكَ حَقًّا يَا جَدِّي ؟
قَالَ جَدُّهُ : نَعَمْ ، أَتَعْلَمُ يَا عُمَرُ مَنْ هُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ؟
قَالَ عُمَرُ : أَعْلَمُ أَنَّهُ مَوْلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، أَيْ عَبْدُهُ الْمُعْتَقُ ، وَقَدْ أَهْدَتْهُ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ
خَدِيجَةُ ، عِنْدَ زَوَاجِهِمَا .

قال جدّه : هَذَا صَحِيحٌ يَا عُمَرُ . تَعَالَ الْآنَ لِتَأْكُلَ
الْفَطِيرَ وَالْعَسَلَ ، وَسَوْفَ أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّةَ زَيْدِ بْنِ
حَارِثَةَ بَعْدَ أَنْ تَفْرُغَ مِنَ الْأَكْلِ .

* * *

وَفِي الْبَيْتِ حَكَى الْجَدُّ الْقِصَّةَ لِعُمَرَ ، قَالَ : سَافَرَ زَيْدٌ
مَعَ أُمِّهِ لَزِيَارَةِ بَنَى مَعْنٍ قَوْمِ أُمِّهِ ، وَكَانَ عُمُرُهُ إِذْ ذَاكَ
ثَمَانِي سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ زَيْدٌ قُرَّةَ عَيْنٍ أَبِيهِ يُحِبُّهُ حُبًّا
كَثِيرًا ، فَحَزَنَ لِابْتِعَادِهِ عَنْهُ ، وَلَكِنَّهُ سَرَّعَانَ مَا طَمَأَنَّ
نَفْسَهُ بِأَنَّهَا مُجَرَّدُ زِيَارَةٍ ، وَيَعُودُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا فَلَذَّةُ كَبِدِهِ .
وَلَكِنْ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ ، وَأَغَارَتْ إِحْدَى
الْقَبَائِلِ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ زَيْدٌ وَأُمُّهُ ، فَأَسْرَوْا
زَيْدًا وَبَاعُوهُ عَبْدًا رَقِيقًا فِي سَوْقِ الرَّقِيقِ بِعُكَازٍ .
فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ حَارِثَةُ - أَبُو زَيْدٍ - حَزَنَ حُزْنًا شَدِيدًا

لَفَقِدَ ابْنَهُ الْحَبِيبَ ، وَأَصْبَحَ لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا التَّنْقُلُ بَيْنَ
الدِّيَارِ فِي الْقَبَائِلِ الْمُخْتَلِفَةِ ، يَبْحَثُ عَنْ ابْنِهِ زَيْدٍ .

وَقَدْ اشْتَرَى زَيْدًا مِنْ سَوْقِ عُكَاظَ ، أَحَدُ سَادَةِ
قُرَيْشِ الْأَثْرِيَاءِ ، هُوَ حَكِيمُ بْنُ حَزَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ ..
اشْتَرَاهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ . ثُمَّ أَهْدَى حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ
الْغُلَامَ الصَّغِيرَ إِلَى عَمَّتِهِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ .

قَالَ عُمَرُ مُسْتَنْكِرًا : مَا هَذَا الْعَبَثُ ؟ كَيْفَ يَكُونُ
الْإِنْسَانُ بِضَاعَةً تُبَاغُ وَتُشْتَرَى ، أَوْ تُهْدَى مِنْ مَالِكَ إِلَى
مَالِكٍ آخَرَ ؟

قَالَ جَدُّهُ : كَانَ هَذَا هُوَ الْعُرْفُ السَّائِدَ حِينَئِذٍ ،
وَعِنْدَمَا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَبْطَلَ الرِّقَّ أَيِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَأَعَادَ
لِلْإِنْسَانِ كِرَامَتَهُ . وَكَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، عَمَّةُ
حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ ، سَيِّدَةً غَنِيَّةً تَمْلِكُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً ،

وَتِجَارَةٌ وَاسِعَةٌ . وَقَدْ رَافَقَ عَبْدُهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ،
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ فِي رِيعَانِ شَبَابِهِ ، فِي سَفَرَةٍ
تِجَارِيَّةٍ لِحَسَابِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ ، فَلَمَسَ فِي مُحَمَّدٍ
الصَّدْقَ وَالْأَمَانَةَ ، وَالْأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ ، وَالصِّفَاتِ
الْحَمِيدَةَ ، فَلَمَّا رَجَعَا مِنْ سَفَرَتِهِمَا ، نَقَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى
سَيِّدَتِهِ ، فَمَا مَهَّدَ لَزَوَاجِهَا مُحَمَّدًا .

وَعِنْدَمَا تَزَوَّجَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مُحَمَّدَ
ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، أَهَدَتْ إِلَيْهِ زَيْدًا كَمَوْلَى لَهُ ، فَتَقَبَّلَهُ مِنْهَا
رَاضِيًا مُمْتَنًا ، وَكَانَ كَثِيرَ الْعَطْفِ عَلَيْهِ وَالرَّعَايَةِ لَهُ .

وَحَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ رَأْيَ بَعْضِ جِيرَانِ حَارِثَةَ - أَبِي
زَيْدٍ - زَيْدًا فِي مَكَّةَ فَتَعَرَّفُوا عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ أَبَاهُ
يَبْحَثُ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ فِي شَوْقٍ شَدِيدٍ إِلَيْهِ .
فَقَالَ لَهُمْ زَيْدٌ : أَخْبِرُوا أَبِي أَنِّي هُنَا مَعَ أَكْرَمِ آبِ لِي .

وَعِنْدَمَا عَلِمَ حَارِثَةُ أَنَّ ابْنَهُ مَوْجُودٌ فِي مَكَّةَ ، كَادَ
يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ ، وَأَسْرَعَ هُوَ وَأَخُو لَهُ إِلَى مَكَّةَ ، حَيْثُ
يَلْتَقَى بِابْنِهِ الْحَبِيبِ .

وَفِي مَكَّةَ قَابَلَ حَارِثُ مُحَمَّدًا ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَرُدَّ
إِلَيْهِ ابْنَهُ ، مُقَابِلَ مَا يَطْلُبُهُ مِنْ فِدَاءٍ .

وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا الْأَمِينَ قَالَ لَهُمَا : خَيْرًا زَيْدًا فَإِنْ
اخْتَارَكُمَا ، فَلْيَذْهَبْ مَعَكُمَا بِمَا فِدَاءٍ ، وَإِنْ اخْتَارَنِي
فَأَهْلًا بِهِ .

وَاخْتَارَ زَيْدٌ أَنْ يَبْقَى مَعَ مُحَمَّدٍ .

تَسَاءَلَ عُمَرُ : أَرَفَضَ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أَبِيهِ ، الَّذِي
تَعَذَّبَ كَثِيرًا فِي الْبَحْثِ عَنْهُ ؟

قَالَ جَدُّهُ : وَجَدَ زَيْدٌ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ نِعَمَ
الْأَبِ ، مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَةٍ إِلَى كَرَمِ خُلُقٍ . وَعَادَ حَارِثَةُ
إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ رَاضٍ بِالنَّفْسِ مُطْمَئِنِّ الْفُؤَادِ ، فَزَيْدٌ فِي

كَفَّ (رِعَايَةٍ) أَفْضَلَ وَالِدٍ لِابْنِهِ ، كَفَّ مُحَمَّدٍ
الصَّادِقِ الْأَمِينِ .

وَاصْطَحَبَ مُحَمَّدٌ زَيْدًا إِلَى سَوَاقِ مَكَّةَ ، وَأَشْهَدَ أَهْلَ
مَكَّةَ جَمِيعًا ، أَنَّ زَيْدًا ابْنُهُ ، وَلَهُ الْحَقُّ كُلُّ الْحَقِّ أَنْ
يَرِثَهُ ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَصْبَحَ زَيْدٌ يُعْرَفُ لَدَى الْجَمِيعِ
بِاسْمِهِ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ .

* * *

وَبَدَأَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَرَأَى يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى نَبَذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ،
وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَلَقِيَ هُوَ وَصَحْبُهُ أَشَدَّ أَلْوَانٍ الْأَذَى
وَالْعَذَابِ .

وَنَزَلَتْ الْآيَاتُ تُحَرِّمُ التَّبَنَّى ، فَرَجَعَ إِلَى زَيْدٍ اسْمُهُ
الْأَوَّلُ « زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ » . وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ الرَّسُولَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْ الْعَطْفِ عَلَى زَيْدٍ وَرِعَايَتِهِ ،

فقد كَانَ يُحِبُّهُ حُبًّا كَثِيرًا ، لَوْفَانِهِ وَصِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي
خِدْمَتِهِ ، حَتَّى كَانَ يُسَمِّيهِ « زَيْدَ الْحَبِّ » .

وَهَاجَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَانْتَشَرَ
الْإِسْلَامُ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَأَرْسَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الْغَزَوَاتِ يَلِي بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَكَانَتِ الْإِمَارَةُ فِي
تِلْكَ الْغَزَوَاتِ جَمِيعًا « لَزَيْدِ الْحَبِّ » دَائِمًا .

وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَقُولُ :
مَا أَرْسَلَ النَّبِيُّ غَزْوَةً إِلَّا وَأَمَرَ عَلَيْهَا زَيْدًا ، وَلَوْ كَانَ
زَيْدٌ حَيًّا عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ، لَأَسْتَخْلَفَهُ مِنْ بَعْدِهِ .

وَقَدْ شَهِدَ زَيْدٌ غَزَوَاتِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَالْخَنْدَقِ
وَالْحُدَيْبِيَّةِ ، وَأَسْتَخْلَفَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَى الْمَدِينَةِ حِينَ خَرَجَ إِلَى « الْمُرَيْسَعِ » ، وَكَانَ لَزَيْدِ
الشَّرَفُ الْأَكْبَرُ أَنَّهُ الْوَحِيدُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ .

وجاءت السنة الثامنة من الهجرة ، وحانت الساعة
التي يلقي فيها زيد ربه . فخرج في جيش عدته ثلاثة
آلاف مقاتل لحرب الروم في غزوة مؤتة ، وقد ولّاه
الرّسول أميرا على الجيش ، فإن قتل يتولى الجيش بعده
جعفر بن أبي طالب ، فإن قتل جعفر يتولى الجيش عبد
الله بن رواحة .

وعلم الروم بخروج المسلمين إليهم ، فتجهّزوا
بجيش جرار من مائة ألف مقاتل ، وانضم إليهم مائة
ألف آخرون من مشركي العرب . وفكر المسلمون في
إخبار الرّسول صلى الله عليه وسلم بأمر عدوهم وعدده ،
ولكن عبد الله بن رواحة قال لهم بإيمانه العميق :

- والله يا قوم إنا لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ،
وإنما نقاتل بهذا الدين ، فانطلقوا فإنما هي إحدى
الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة .

قالَ عُمَرُ مُتَعَجِّبًا : ثَلَاثَةُ آلَافٍ فَقَطْ ، أَمَامَ مِائَتِي
أَلْفَ : إِنَّهَا وَاللَّهِ مُهِمَّةٌ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ .

قالَ جَدُّهُ : كَانَتْ حَرْبًا ضَارِيَةً ، لَيْسَ فِيهَا تَكَافُؤٌ فِي
الْعَدَدِ أَوْ الْعَتَادِ ، وَلَكِنَّ الصَّحَابَةَ قَاتَلُوا بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ ،
وَعَزِيمَةٍ جَبَّارَةٍ ، قِتَالًا أَذْهَلَ الرُّومَ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَلَأَ
قُلُوبَهُمْ رُغْبًا مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ ، الَّذِينَ صَمَدُوا
أَمَامَ جَيْشِهِمُ الْبَالِغِ مِائَتِي أَلْفٍ مُقَاتِلٍ ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ
سُقُوطِ قُوَادِمِهِمُ الْوَاحِدِ تِلْوَ الْآخَرِ .

وَلَقِيَ زَيْدٌ رَبَّهُ ، وَفِي جَسَدِهِ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ جُرْحٍ ،
وَتَبِعَهُ جَعْفَرٌ ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ .

وَفِي الْمَدِينَةِ نَعَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
شُهَدَاءَ الْمَعْرَكَةِ ، كَأَنَّمَا كَانَ يَرَاهُمْ رَأَى الْعَيْنَ ، قَالَ :
(اسْتَغْفِرُوا لِزَيْدٍ ، لَقَدْ حَمَلَ الرَّايَةَ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى مَاتَ
شَهِيدًا ، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَسْعَى) .

سأل عُمرُ جدّه : وكيف انتهت المعركة يا جدّي ؟
قال جدّه : استطاع خالد بن الوليد - سيفُ الله
المسلول - أن يخرج بالجيش من المعركة بأقلّ قدرٍ من
الخسائر ، وعاد به إلى المدينة .

وحزن النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم حزناً عظيماً
لموت القوّاد الثلاثة ، وخرج لتعزية أهلهم . وعندما
كان في بيت زيدٍ لاذت به ابنة زيد الصّغيرة وهي تبكي ،
فبكى صلّى الله عليه وسلّم حتّى انتحب وعلا صوته
بالبكاء .

فقال له سعد بن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟
قال : هذا بُكاءُ الحبيبِ على حبيبه .
قال عُمر : يا لها من قصّة رائعة ، تدلُّ على شجاعة
أصحاب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، وبخاصّة زيد ،
الذى أظهر ولاءً وخباً ووفاءً للرّسول ، وأظهر شجاعةً

عَظِيمَةً فِي جَمِيعِ غَزَوَاتِهِ ، لَا سِيَّما فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ .
قَالَ جَدُّهُ : أَفْهَمْتَ الْآنَ يَا عُمَرُ ، مَوْقِفَ الْكُتَاكِتِ
وَالْبَطَّةِ ؟

قَالَ عُمَرُ : نَعَمْ ، وَفْهَمْتُ كَذَلِكَ مَوْقِفَ زَيْدٍ ، فَقَدْ
فَضَّلَ الْحَيَاةَ فِي كَنْفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
أَيُّ فِي حِمَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَكَانَ اخْتِيَارُهُ مُوَفَّقًا ، فَنِعِمَّتِ
الْحَيَاةُ فِي ظِلِّ أَفْضَلِ مُعَلِّمٍ فِي مَدْرَسَةِ الْإِسْلَامِ ، الَّذِي
هُوَ الْقُدْوَةُ وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ .

وَابْتَسَمَ عُمَرُ وَأَكْمَلَ حَدِيثَهُ : وَاعْلَمْ يَا جَدِّي أَنِّي كَذَلِكَ
أُحِبُّكَ ، وَأُحِبُّ أَنْ أَقْضِيَ مَعَكَ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مُمَكِّنَةٍ .

فَاخْتَضَنَهُ جَدُّهُ فِي حُبٍّ وَحَنَانٍ ، وَقَالَ : وَأَنَا أَيْضًا
أُحِبُّكَ ، وَأُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مَعِيَ دَائِمًا . وَالْآنَ هِيَ
لِتَرْكَبَ الْحِمَارَ .

يَا مَبْرُوكَ . أَحْضِرِ الْحِمَارَ الصَّغِيرَ لِعُمَرَ .